رِسَالَةُ حبٍّ

قصص قصيرة

تأليف:

أسماء قدري

2006

الإصدار الأول

الناشر :

الزنبق
للنشر و التوزيع

I.S.B.N

978-9948-436-17-1

حقوق الطبع و النشر محفوظة للناشر
و يمنع النقل أو التصوير أو الاقتباس.

إهداء...

المحتويات

شريد.............................5

اللحن الحزين 11

الانتظار 15

رسالة حب 22

االثمن 31

موعدنا اكتمال القمر 39

سمراء 50

ملك مطروح 59

المندوب 65

إيمان 72

شيخوخة 77

أنا و هو و الهرة السمراء 82

محطات الترام 89

البلّورة الزرقاء 95

ما هو الحب؟

ألم تسأل نفسك يوما؟

ما هو الحب؟

ذلك الذي يتحدث عنه الناس، يهتم به الناس، يتناقل أخباره الناس،

و يحتدم حوله الجدل و تتعدد عنه الرؤى و الآراء؟

ما هو الحب؟

و أين وجهه الأصلي وسط الأقنعة التي دوختنا ؟!

نعيم أم جحيم؟ كوب من العسل أم كأس من الخمر؟

زهرة أم شوك؟

سماء زرقاء أم مغارة مظلمة سوداء ؟

ماسة هي قطعة من نقاء يبقى إلى الأبد،

أم روح ألفة شفافة، ربما برث كالماس لكنها

تنبض بين يديك بشيء

اسمه الحياة!

أسماء

شريد

كان يوما صاخبا!

ركبت سيارتي و انطلقت مغلقا زجاجها و مفتاح الأمان فيها كـــأنني أنعزل بذلك عن كل البشر،

ماذا بقي لي الآن؟!

انتابني إحساس خانق بالوحدة و الوحشة و الضياع،

لم يكن لي سوى عملي بعد أن تركتني هبة،

و الآن حتى هذا تركني!

لست أدري لماذا تنغلق أمامي كل الأبواب هكذا معا؟

الغصة تؤلم حلقي و أنا أتذكر،

عقلي يضج بصراخ صاخب،

هبة تثور ثورتها العارمة، تبكي، تولول،

تكرر أن حياتنا معا أصبحت مستحيلة!

و المدير يحذرني من أخطائي المتكررة،

لم أتخيل أنها تعني ما تقول، كنت أظنها ثورة عابرة أخرى و ستهدأ،

بالتأكيد ستهدأ، حين أفاجئها بهدية صغيرة.

هاهي الهدية معي، لكن هبة ليست كذلك!

المدير يصرخ في وجهي حين تغيبت بغير إذن، لم يفهم أنـــني كنـــت أحاول إنقاذ حياتي.

و هبة تلملم ثيابها بعصبية غير عابئة بمحاولاتي،

لم أعهدها بهذه القسوة!

كنت دائما أخطئ فتثور فأغضب لتبدأ هي معي محاولات الصلح،

أحيانا كنت أبدأ أنا،

كانت تقبل، بأيّ شيء تقبل، بلا شيء تقبل، و تبقى معي.

لكن هذه المرة كانت تعني نهاية عملي في الشركة!

اليوم أعلنها المدير بكل صراحة،

أعلنها قاطعة صارمة قاسية،
مثلما كانت هبة و هي تصفع خلفها الباب أول أمس خارجة من المترل و خارجة من حياتي،
لكنني لم أستوعب ذلك إلا عندما عدت إلى المترل أمس فلم أجدها،
و اليوم......

انحرفت بالسيارة يسارا متجها إلي طريق البحر،
الجو قارس البرودة في قلب فبراير، لكنني لا يمكنني أن أعود إلى المترل الآن،
كم سيكون موحشا حين أدخله فلا أجدها تنتظرني!
أكثر بردا من هواء البحر اللاسع، و أكثر وحشة من الليل و الصحراء معا.
بدونها لا بيت هناك، و لا أمان..
و الآن لا عمل أيضا!
العالم كله يلفظني،
لا قلب يحتويني،

و لا عيون تدفئني،

و لا مخلوق في هذا الليل يعرفني!

أعلم أن شمس الظهيرة مازالت تكلل رؤوس الخلق لكنني أغرق وحدي في ليل بهيم لا ينتهي.

وحيد، شريد، منبوذ من الجميع!

كان الحزن يملأني و الأفكار تعصف بكياني فلم أنتبه لأن مصباح إنذار الوقود في سيارتي مضاء منذ أن غادرت العمل، لم أنتبه إلا حين توقفت السيارة بالفعل.

توقفت بجوار صندوق القمامة العام وأنا أكاد أنفجر كطفل في البكاء!

هبة كانت دائما تقول أنني طفل كبير،

كم هي على حق الآن!

أنا طفل كبير يحتاج إلى أحضان أمه الحنونة كي تحميه من توحش العالم من حوله!

حركة عند صندوق القمامة استرعت انتباهي فالتفتت،

كان رجلا، رجلا من هؤلاء اللذين يطلق عليهم في الغرب لقب "بلا بيت" ، رجل نحيل نحيل بشكل لا يصدق،

تكسوه القذارة حتّى اسوّد لون بشرته الممصوصة المجعدة، مغبر شعره الطويل شعثت لحيته المطلقة حتى صارت أقرب إلى خرق رمادية مفتلة منها إلى شعر، حافي القدمين يكسوه قميص ممزق و بقايا سروال بال لا يستر، فتبدو منه ساقاه الناحلتان زرقاوان من شدة البرودة.

و بكل ذلك الكيان الخرافي كان يعبث في الصندوق باحثا عن بقايـــا شيء يؤكل، خفق قلبي بعنف!

اللحن الحزين

غريبة الأطوار هي،

لم أر في حياتي من هو أكثر منها مرحا و تفاؤلا حتى في أسوأ الظروف، مازلت أذكر كيف كانت توزع عبارات التشجيع على الجميع في ذلك اليوم العصيب، و ياله من يوم!

ثلاثة امتحانات في يوم واحد! لقد كنا نذوب إرهاقا و خوفا، و أستاذ أحد هذه المواد يملأ الكون تهديدا فيبعثر كل بقايا التماسك في أعماقنا.

كلنا غرقنا في بحر القلق إلا هي!

كم أثار دهشتي و إعجابي تماسكها الشديد و ابتسامة الثقة و الهدوء التي لم تغادر شفتيها طوال الوقت و هي تسري بيننا كما يسري النسيم توزع علينا عبارات التشجيع و تترك مراجعتها هي لكي تشرح شيئا هنا أو تفسر شيئا هناك.

و قد كان لعباراتها تأثير السحر على عقولنا المرهقة و معنوياتنا المضعضعة، حتى أن كلماتها مازالت ترن في أذنيّ حتى الآن و نحن في السنة النهائية، في كل امتحان أعبره، بصوتها المرح العذب، و ابتسامتها الهادئة التي تبعث على الهدوء و الارتياح.

من في الكلية كلها لا يعرفها ؟!

ربما لا أحد!

إنها كالأم للجميع، الكل يعرفها و الكل يلجأ إليها، و هي دائما متواجدة عند الحاجة.

لكنني لم أر لها صديقة واحدة! صديقة تلجأ هي إليها أو تطلب هي مساعدتها.

و من كان يتصور أن هذه الجنية الطيبة قد تحتاج لمساعدة؟! إنها تحل للجميع مشكلاتهم حتى رسخ في نفوسنا اعتقاد حاسم أنها لن تعجز أبدا عن تخطي أية عقبة تعترض طريقها أيا ما كانت.

و من يتصور أن تكون لها مشكلاتها هي الأخرى؟

مشكلات قد تجلب لها الأحزان و تملأ قلبها بالألم، و تكون بحاجة لأم مثلها تربت على كتفها و تمنحها بعض الأمل؟

أنا نفسي لم أكتشف ذلك سوى منذ شهر واحد فقط،

كنا في فترة استراحة بين المحاضرات و جلسنا جميعا سويا في المعمل نتبادل التعليقات المرحة في انتظار الأستاذ بينما اتخذت هي مقعدا جانبيا كعادتها تتابع ما نقوله بابتسامتها الهادئة، و تجلّى ثلاثة منا في ذلك حتى لقد كانوا يقولون نفس التعليقات في ذات الوقت و خفة ظلهم تغرقنا في الضحك، و ذات لحظة حانت مني التفاتة تجاهها ليصدمني ذلك الطارئ العجيب الذي اعتراها.....

____

____

_____

الإنتظار

وسط السواد الكثيف تسللت، انسلت ربما كقطعة من الظلام بثيابها الحالكة التي تغطي بعناية كل خلية من جسدها، و وجهها الذي أغرقته كاملا بالفحم المطحون حتى لم يعد يبدو منها سوى بياض عينيها كشرارة متقافزة، و لو استطاعت لطلته هو أيضا!

بخفة الفهود تنقلت بين ثكنات المعسكر الإسرائيلي الرابض كضبع شرس ينتظر الفريسة التالية كي يطبق عليها أنيابه الخائنة، تخرج من طيات ثيابها إحدى القنابل و تثبتها في خبرة و دراية حيث خططت

مسبقا، تعدّها للإنفجار حين تأمرها، ثم تتحرك من جديد إلى نقطة أخرى، دون أدنى صوت، يعينها جسدها الضئيل ذو الأعوام الستة عشر ، و ما يقرب عقدا كاملا من التدريب المستمر..

واحدة بعد واحدة تثبتها، في صبر و حذر، تدفنها بين الرمال و بين أذيال الخيمة، تطوي عليها ذرات الرمال في عناية كأنما تطوي الغطاء لصغيراتها، حتى انتهى مخزونها من القنابل و لم يعد أمامها سوى الإنتظار من أجل اللحظة الحاسمة،

و هو ما تجيده بالفعل.

لقد قضت عمرها كله تنتظر، ألفته و ألفها حتى أصبح جزءا من تكوينها و صارت هي إحدى معالمه، تربى لديها نوع من الصبر لا ينفد، صبر من اعتاد أن تلك هي الطريقة الوحيدة للعيش، و ليس لديها الخيار.

في حداثتها كانت تنتظر يوميا مع أترابها إشارة الأمان تنبئها بأنهم يستطيعون الذهاب إلى المدرسة دون أن يداهمهم هجوم مباغت من دبابات استحلت أن تتخذ الأطفال أهدافا لها، و تترقب طول الطريق و طول الدرس قنبلة أو رصاصات أو صاروخ، و تحمد الله كل ثانية

أن تأجل أجلها للثانية التالية.. و قد يأتي الأمان و قد لايجيء، و يتأجل اليوم الدراسي أياما، أو شهورا، أو حتى تلغيه قنبلة عجول تنسف المدرسة كلها، و يتجمع الأطفال في بيت أحد المعلمين ليتابعوا المهمة، و تمضي الأيام !

و تعود، تنتظر بخوف عودة كل شقيق و كل صديق و جار، أو عودة خبر عن جرحه أو مقتله، و يستحيل آخر اليوم عيدا إذا اكتمل العدد، أو يستحيل هما و حزنا يجلب المزيد من الأحزان، و المزيد من الانتظار!

ثم تنتظر كل ليلة عودة أبيها من الخارج يحمل لها و لإخوتها العشرة ما يبلغهم، و لا يكاد يكفي لذلك، فتندس في الفراش المكتظ مع أخواتها و تعود تنتظر ،

تنتظر النوم يأتيها كي يرحمها من جوعها و من خوفها الدائم من الغارات الغادرة، و يطول انتظارها و لا يأتيها النوم إلا لماما.

كانت تعلم أن مخاوفها و إن لم تتحقق اليوم فستتحقق غدا، هكذا مخاوف الأطفال في فلسطين، و هكذا رأتها تتحقق واحدة بعد الأخرى لكل الأهل و الأصحاب.

و حين أتى دور مخاوفها هي تحقق لها أبشعها!

أحد عشر فتى و فتاة و والديها، لم يبق منهم سواها!

رأت بعينيها الرشاشات تحصدهم واحدا بعد الآخر، و انتظرت أيضا حتى استوعبت الحدث و أتاها الخبر يغرس دستة من الخناجر في قلبها فلا يدع به خلية لم تثخنها الجراح!

في ذهول كادت أن تلقي بنفسها في مرمى الرصاص لولا اختطفتها ذراع قوية.

نظرت فإذا به حسن، جارها الشاب يحمل رغم إصاباته البالغة خمسا من أطفال الحي عداها إلى مكان ما وسط المجهول.......

____

______

__

رسالة حب

لم أكن أعلم حين تركت عملي المرموق كمعيد في كلية الطب تفرغا للعمل الأدبي أنني إنما أقدم على أكبر و أخطر رهان في عمري!

و ربما ما كنت أقدمت على فعل كهذا لولا ذلك المرض الذي طـــرأ على حياتي بغتة فأحالها على الفور إلى سباق لاهث مع الزمن.

فجأة وجدتني أمام حقيقة صادمة لا فرار منها بأن أيـــام الرخـــاء و التراخي قد ولّت و بدأ العد التنازلي المجهول يدوّي في كياني ينـــذرني بأن حياتي إذا ما انتهت بلا تغيير فلن تشكل في ضمير الـــزمن إلا ذرة

من الغبار اعترضت لثوان قبل أن تذهب أدراج الرياح، تاركة مكاني كما كان قبل أن أولد شاغرا بكرا لم يتغير في معالمه أي شيء!

و بعد أيام من التفكير العميق اتخذت قرارا حاسما لم أخبر به أحـــدا بأن أنفض يديّ عن رسالة الطب و طول طريقها لأبحث لي عن ناشر لأعمالي الأدبية قبل أن أمضي.

كانت خطتي أن أؤجل أمرها لأيام التقاعد، لكن ذلك لن يتاح مـــع الأسف!

و هذا ما جعلني أذوب قلقا و أنا أعد أنفاسي عدا كلما خرجت من باب أحد دور النشر خذلانا أنظر للملف المفعم بالأوراق في يــدي و يملأني الأسف و أنا أتحسس تلك الأورام المخفية في رئتيّ، و أتحســـس معها الأمل الذي تبقى لي لأكون شيئا محسوبا قبل أن يسقط اسمي من الحساب و لم أكن شيئا بعد.

لكنني بعد أن عدت من رحلتي الخامسة و العشرين صار في قلبي يقين تام بأن هذا ليس هو الطريق الصحيح، و بأن أحدا من هـــؤلاء لـــن يكلف نفسه مشقة المخاطرة من أجل اسم مجهول مهما كانت جودة العمل أو أهمية المحتوى، و قد أعجزتني قدراتي المادية عن أن أحســـم

ترددهم من البداية و أحمل عنهم المخاطرة و عبء القرار، و اضطرتني لأن أسلك الطريق الأطول و الأصعب و أستمر في محاولاتي الدائبة لإقناعهم واحدا تلو الآخر بتبني أعمالي.

و رغم تنوع ردودهم و أعذارهم إلا أن النتيجة كانت واحدة في النهاية.

و هكذا وجدت نفسي أقف تحت الأمطار الخفيفة صباح ذلك اليوم أسعل و كفي يعتصر قفصي الصدري من شدة الألم، لا أعرف إلى أين أذهب و لا ماذا أفعل، أخالني لم أترك دارا للنشر في بلادنا إلا و طرقت بابها فصدتني، و حتى إن كان هناك سواهم فلا أظن ردودهم ستختلف كثيرا عن سابقيهم.

أحكمت إغلاق سترتي و وقفت أفكر..

لم يعد أمامي سوى طريق واحد!

....

————————

————

الثمن

أدلف إلى البناية القديمة،

كيف قادتني قدماي إلى هنا؟!

كيف و أنا أستاذ الجامعة المرموق أن أتبع خادمتي العجوز إلى مكـــان كهذا؟

أرتقي الدرجات المتهالكة،

يجب أن أعود فورا!

أخطو عبر الباب المفتوح،

كيف لو رآني أحد طلبتي أو زملائي، كارثة!
ستكون فضيحة الموسم، و سأصبح مضغة الأفواه في الكلية، بل في الجامعة كلها!
صوت إنذار مرتفع يدق في عقلي، يشدني من ذراعي،
يجب أن أمضي من هنا!
لكنني لم أفعل،
الإضاءة الخافتة الزرقاء، الضباب يسود المكان، الرائحة الغامضة التي تنبعث من كل ركن حاملة معها خيالات غريبة لا أعرف من أين أتت، تقفز على الرغم مني إلى ذهني و تقودني مستسلما لها كما يقاد قطيع الغنم.
أتجاهل صرخات الاستنكار في عقلي و أستجيب لهذا النداء الغامض.
الستار المنسدل أمامي يتحرك برفق تزيحه يد معروقة سمراء، يبرز منه وجه صامت يأمرني بنظرة مقتضبة فأنهض من مكاني و أتبعه إلى الداخل و خلفي أم رمانة، الخادمة العجوز.
إلى حجرة خالية من الأثاث إلا من وسائد عديدة موزعة إزاء الحائط المقابل، و ثمة ثلاثة منها في منتصف الحجرة جلست أم رمانة على

أحدها ببساطة المعتاد، و على أخرى جلس شيخ مهيب المظهر تبـــدو قسماته القاسية من وراء ستار الضباب الذي يرتفع من وعاء نحاســـي أمامه، و تركت الثالثة خالية.

أظن أن هذه لي........................